

الصِّراع بين الفصحى والعامية

أو أثر الازدواج اللغوي في أسلوب يوسف السباعي

الدكتور زكي عبد الملك

أستاذ الأدب العربي والعلوم اللغوية
جامعة يوتا (الولايات المتحدة)

واللغة الفصحى مشتركة بين العرب وإنما وجدوا
فالمغربي يقرأ ما يكتب في مصر فيفهمه ، والمصري
يقرأ ما يكتب في المغرب فيفهمه . أما اللهجات العامية
فتختلف باختلاف المناطق ، واستخدامها في كتابة
الأدب يحول بين الأدباء في كل منطقة وبين القراء في
المناطق الأخرى .

بقيت حجة أعرب عنها الدكتور محمد مندور
حين زعم أن العامية الدارجة تفيق عادة بالتعبير عن
أعمق المشاعر وأدق المعاني « بحكم أنها لا تزال
مقصورة على حياة الأميين الذين لا يستعملونها إلا في
التعبير عن حاجات حياتهم الضيقة في أنواع المشاعر
ودقة التمييز بينها ، فضلا عن عمق الخاطر أو
أصالته » (3) .

ولما ظهرت القصة الحديثة في الأدب العربي
ونشأ فن المسرح العربي الحديث ، أخذ بعض الأدباء
يتبرمون باضطرابهم إلى انطاق الشخصيات القصصية
والمسرحية باللغة الفصحى . وتساءل أولئك الأدباء :
أفليس عجيبا أن يجري الحوار بلغة فصحة متينة
السبك بين أشخاص لم يصيبوا من الثقافة كثيرا ولا
قليلا ؟ اليس ذلك مما يفسد القصة والمسرحية وبنائهما

في العالم العربي ازدواج لغوي قوامه اللغة
الفصحى واللهجات العامية الدارجة . فأما اللغة
الفصحى فتستخدم في أكثر الأغراض الكتابية كما
تستخدم في أكثر الأحاديث التي يفلب عليها الطابع
الرسمي . وأما اللهجات العامية فيستخدمها الناس في
غير تكلف لتضاه حاجاتهم العادية . والأغلبية الساحقة
من المثقفين في البلاد العربية يرون أن اللهجات العامية
لا تصلح للتعبير الأدبي ، ولهم في ذلك حجج يجدر بنا
أن نعرض لها في إيجاز :

وأهم تلك الحجج أن اللغة الفصحى لغة القروان
وعلى معرفتها يتوقف فهم القروان . لذلك تحمل علماء
اللغة فيما مضى ألوانا من المشقة وضروبا من العناء في
شرح قوامها (1) ، ولذلك يأبى المرء اليوم أن
يستبدلوا بها اللهجات العامية في كتابة الأدب فيقصوها
من حياتهم انصاء لا ندرى أتمود بعده أم لا تعود .

ثم إن اللغة الفصحى تعتبر عند العرب أوفى من
اللهجات العامية وأعلى ، وإتقانها دليل مندهم على
الثقافة العالية والدوق الرفيع . ليس فريبا إذن أن
يرد طه حسين جهل فريق من الشعراء بالفصحى إلى
الكسل والتقصير والتصور (2) .

- (1) « المقدمة » للعلامة ابن خلدون (القاهرة : مطبعة التقدم) ، الجزء الأول ، ص 455 .
- (2) « حديث الأربعماء » لطلح حسين (القاهرة : دار المعارف ، 1957) ، الجزء الثالث ، ص 200 - 201 .
- (3) « المسرح النثري » للدكتور محمد مندور (القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، 1959) ، ص 81 .

بهما عن الواقع الذي تجتهدان في تصويره ؟ ومع ذلك ظل أكثر الأدباء والنقاد يرون **اللغة الفصحى غير أداة للتعبير في المسرحية والقصة ، ويقاومون استبدال العامية بها ؛** فالدكتور محمد مندور مثلا لا يتردد في رفض الدعوة الى استخدام العامية في المسرحية ، وهو يعمل رفضه على النحو التالي :

« كل مسرحية انما هي حكاية حال ... ولا يمكن أن تكون حكاية لسان ، فالمؤلف لا ينطق لسان مقال شخصياته الروائية بل ينطق لسان حالهم ، والواقعية ليست في اللغة وانما في التصوير النفسي للشخصيات ومدى مطابقتها لهذا التصوير لواقع الحياة الظاهر منها والخفي ، والذي تستطيع الشخصيات التعبير عنه أو لا تستطيع . والذي يحدث فعلا هو ان المؤلف يمبر بلفته هو ولسانه ، وكل ما يطلب منه هو ان يأتي تعبيره صادق التصوير لواقع شخصياته . وسيان في ذلك - من الناحية الفنية - أن يستخدم لغة عربية فصحة أو عامية أو أية لغة أخرى » (4) .

والاديب المصري يوسف السباعي ممن يرون أن للعامية في القصة والمسرحية دورا يجب أن تؤديه . وقد عرضه ذلك لنقد عنيف رد عليه أكثر من مرة ثم تظاهر بالامراض عنه ، ولكنه تأثر به ما في ذلك شك ، فقد مر أسلوبه القصصي بمراحل ثلاث : كان في المرحلة الاولى أسلوبا جزلا فصيحاً يكثر فيه الاستشهاد بالشعر ويوشك أن يبرا من العامية . ومن خير الامثلة على أسلوب هذه المرحلة كتاب «اطياف» (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1947) ، فانت تقرا فيه الصفحة تلو الصفحة فلا تجد من العامية (5) الا الفاظا قلائل متفرقة ، يدل عليها المؤلف ويميزها من بقية الالفاظ كأنه يعتدل منها الى القارىء : (6)

اني لم أرك منذ كنت تصطاد السمك على شاطيء الترمة « بالبنطلون القصير »

ما زالت ذاكرتك قوية « يا عم محمد »

سأجهز لك « سنارة » لصيد السمك .

(4) المرجع السابق ، ص 57 - 58 .

(5) اللهجة العامية التي استخدمها يوسف السباعي في قصصه هي اللهجة القاهرية .

(6) ص 82 .

(7) المثال الاول مقتبس من صفحة 25 والثاني مقتبس من صفحة 28 .

وقد تجد بين صفحات الكتاب احيانا ما يبعث في نفسك شعورا قويا بأن المؤلف يشق على نفسه في الكتابة ، ويتكلف من العناء شيئا غير قليل في اختيار الالفاظ حتى تستقيم له العبارة ويبرا أسلوبه من العامية : (7) .

— قم يا ابن الليمة . ماذا تفعل ههنا ؟ تالله لئن رايتك خطوت الى هنا مرة ثانية لادفن عنقك .

— لتقر عينك يا ابا لهب ، ولتهدا بالا . لتتخذن لك من دارى مأوى ومخبا .

وفي المرحلة الثانية تنقسم القصة من حيث الاسلوب الى قسمين : القسم الاول هو ما يقدمه السباعي نفسه بين يدي القارىء من تحليل ووصف للزمان والمكان والاحداث والشخصيات . واسلوب هذا القسم فصيح رغم أن الالفاظ العامية تتسرب اليه بين الجين والحين . والقسم الثاني هو الحوار ، واسلوبه عامي ليس فيه من آثار الفصحى الا الهجاء . ومن خير الامثلة على أسلوب هذه المرحلة كتاب « السقامات » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1952) الذي شرح السباعي في مقدمته موقفه من العامية :

« التقيت ذات يوم بالاستاذ احمد بك عباسي كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف ، فانباني ان الوزارة كانت توشك أن تقر بعض كتبى لمدارسها لولا أن اللجنة المختصة رأت أن الكتب تحوي بعض عبارات بالعامية

« وعلى هذا فلم اكد أبدا هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعارف ومطالبها التي تتفرع عن اللغة العامية، وعزمت أن اقيم سباجا منيعا يحول دون تسرب الالفاظ العامية التي تأبى الا أن تفرض نفسها فرضا في سياق الحديث . واخذت في الكتابة محاولا اجراء الحوار بين ابطال القصة باللغة الفصحى ، ولكنني لم اكد أكتب بضع صفحات ، ولم اكد « أحصي » في الكتابة ، حتى وجدت ابطال القصة ينطلقون على الرغم مني في الحديث بالعامية ...

« ولست أشك أننا في فترة صراع بين العامية والفصحى »

« وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع بين الفصحى والعامية . ولا جدال هناك في أن الغلبة - في الحوار - للعامية ، لأنه من المستثقل الممجوج أن نحاول انطاق اشخاص القصة باللغة الفصيحة وهم لا يمكنهم في حياتهم الطبيعية أن ينطقوا بها . » (8)

واستثناء العامية بالحوار جاري في العبارات التالية التي نقتبسها من الكتاب : (9) .

— ما فيش لزوم يا شحاتة أفندي . أنا رايح القهوة بتاعتنا عشان عندي شوية شغل عايز اقصيهم .

— وماله . تقضي شغلك وبعدين نروح سوا .

بقي أسلوب المرحلة الثالثة ، وهو يفوق الاساويين السابقين في الاهمية لسببين :

أما السبب الأول فهو أن السبامي يلتزم ذلك الأسلوب في أكثر ما كتب من قصص ، ولعنه قد استقر واتخذ مذهباً دائماً . واذن فقد يكون ذلك الأسلوب النتيجة التي انتهى إليها الصراع بين العامية والفصحى عند السبامي . وما دامت خصائص الازدواج اللغوي واحدة في كل مكان (10) فقد يكون في أسلوب هذه المرحلة من الخصائص ما هو شائع في الاساليب القصصية وإنما يوجد الازدواج اللغوي .

وأما السبب الثاني فهو أن السبامي من أكثر العرب إنتاجاً ، فقد نشر بين عامي 1947 و 1968 خمسة وأربعين كتاباً ، منها خمس مطولات مسرفة في الطول هي : « رد قلبي » و « ناديا » و « جفت الدموع » و « ليل له آخر » و « نحن لا نزرع الشوك » . وأكثر قراء السبامي من الشبان الذين تبدأ حياتهم الأدبية عادة بتقليد ما يطالعون . وقد ظفر السبامي من ثناء النقاد (11) بما يفري القراء بتقليده ان كانوا في حاجة الى الإغراء ومنهم من يعجبون به إعجاباً يخرجهم من

طورهم أحياناً . (12) لن يدهشنا إذن ان يكتب عدد كبير من قصص المستقبل بأسلوب المرحلة الثالثة .

لهذين السببين يجدر بنا ان نحلل أسلوب المرحلة الثالثة في شيء من الإناة والتفصيل . وأول ما نلاحظه ان السبامي في تحليله ووصفه يصطنع أسلوباً فصيحاً تعترضه أحياناً الغلط عامية أو أجنبية كالالفاظ التالية :

برنيطة ، معيز ، بنج بونج ، دكة ، شلة ، شورت ، بوز ، تنس ، مد موازبل .

لكن الجديد حقاً في أسلوب هذه المرحلة هو ما تجده في الحوار . ذلك أن لغة الحوار ليست فصيحة صرفاً ولا عامية صرفاً ، وإنما هي بين بين ، تأخذ من هذه بمقدار ومن تلك بمقدار . ومن خير أمثلة على هذا الأسلوب كتاب « نادبة » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1960) . تفرد ذلك الكتاب فيخيل اليك ان الأشخاص يتخاطبون على فطرتهم بالعامية ، ولكنك تتأمل ما يقولون فإذا أنت مضطر الى الاعتراف بان للفصحى اثرًا ظاهرًا لا سبيل الى انكاره . على هذا النحو يجتهد السبامي في التوفيق بين العامية والفصحى وهو يتوسل الى هذا التوفيق بأربع وسائل هي : اقتباس ، واصطناع كلمات « الطبقة الدنيا » ، وترجمة التعبيرات العامية الى الفصحى ، وتجريد الكلمات من علامات الإعراب . ولنفصل :

الاقتباس

يقتبس السبامي من الانجليزية والفرنسية عدداً غير قليل من المفردات ولكنه ، كما يتضح من الأمثلة التالية ، قل ان يقتبس العبارات :

هالو

ول

تيم

جمنزيم

بونجور

(8) ص 6 - 8 .

(9) ص 261 .

(10) Charles Ferguson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), pp. 325-340.

(11) من هذا الثناء ما كتبه توفيق الحكيم في « يا أمة ضحكتم » ليوسف السبامي (القاهرة : مطبعة روز اليوسف 1955) ، ص 5 - 8 .

(12) سجل يوسف السبامي شيئاً من هذا الإعجاب في كتابه « اني راحلة » (القاهرة : مؤسسة الخانجي 1950 ، ص 10 - 15 .

غير أن ما يقتبسه السباعي من اللغات الأجنبية قليل إذا قيس بما يقتبسه من العامية . ذلك أن السباعي لا يقتنع في اقتباسه من العامية بالمفردات بل يتمداها ، كما ترى في الأمثلة التالية ، إلى التعابير ولا سيما التعابير المجازية والأمثال السائرة :

ماما	فحة	صبيطة
بابا	جاجة	يزفد
شمامة	فائلة	طس
زور	فتلة	

أمال	سي (سي عمر)
الله !	ياربيت
اما (اما مفاجأة !)	وماله

على سن ورمح - عيون فارغة - يفتح الله
لا هنا ولا هناك (أنا لا هنا ولا هناك)

جه نقبها على شونة

اكف الجرة على فمها تطلع البنت لامها

الله يخرب بيته - الله بعمار بيته - لا مؤاخدة

راح الله لا يرجعه - أشيل مين فيهم - راجل اليط
انت بنت مياعة - مياعة بنات - مش بطل - برك
على انفاسي - حاضر يا فندم .

ولمة نوع آخر من الاقتباس يتميز به الحوار في المرحلة الثالثة هو اقتباس التراكيب من العامية . ومن أمثلة ذلك :

(1) العطف بدون حرف عطف :
قومي البسي

(2) تكرار اللفظة للدلالة على الاستهتار :
شيوعيون شيوعيون

(3) مخالفة البديل للمبدل منه في التعريف والتشكيير :
هند دادة فاطمة

(4) استعمال الواو للدلالة على الاستمرار :
ثلاث ساعات وأنا واقف على قدمي

(5) مخالفة بعض الصفات للموصوف في التذكير والتانيث ، أو في الأفراد والتثنية والجمع :

فستان بمبة - زهور بمبة - ناس بلدي

ولنلاحظ أن السباعي في اقتباسه من العامية متأثر بالفصحى من حيث لا يدري . فما ينطق في بعض الكلمات العامية همزة يكتبه السباعي قافا ، وما ينطق في البعض الآخر دالا يكتبه ذالا :

نقبا - خذ بالك

اصطناع كلمات « الطبقة الدنيا »

الكلمات المشتركة بين اللغة الفصحى والنهجة العامية القاهرية ثلاثة أنواع :

(1) كلمات لا تختلف صيغها العامية من صيغها الفصيحة ، ومن هذه الكلمات « كتب » و « درس » و « بلد » و « من » وهلم جرا .

(2) كلمات لكل منها صيغة فصحة وأخرى عامية : والصيغتان مختلفتان اختلافا يقرره قانون لغوي عام . فالصيغ الفصيحة « نائم » و « صائم » و « عائم » و « دائم » و « فوائد » تختلف من نظائرها في اللهجة القاهرية (« نايم » و « صايم » و « هايم » و « دايم » و « فوايد »)

اختلافا يقرره القانون اللغوي القائل ان المشتقات من مجرد الثلاثي الاجوف تكون عينها في العامية القاهرية ياء اذا كانت في الفصحى همزة .

(3) كلمات لكل منها صيغة فصحة وأخرى عامية : والصيغتان تشابهان الى حد وتختلفان الى حد ، ولكن ما بينهما من فرق لا يقرره قانون عام . فالفروق التي تميز الصيغ الفصيحة « رجل » و « امرأة » و « عربية » من نظائرها في اللهجة القاهرية (« راجل » و « مره » و « عربيه ») لا تقررهما قوانين عامة .

ومن الكلمات المشتركة ما له مترادفات تنفرد بها الفصحى من دون العامية ، ومنها ما ليس له مثل هذه المترادفات : فالفعل « دوخ » مشترك بين العامية والفصحى ، وله مرادف فصيح لا تشترك فيه العامية هو « ارهق » . واسم الفاعل « صائم » مشترك بين العامية والفصحى كذلك ، الا اننا لا نجد له مرادفا تنفرد به الفصحى من دون العامية .

مضطجمة راقدة
يرهقونه يدوخونه

ترجمة التعابير العامية الى الفصحى

نصح الدكتور محمد مندور للقاصيين بترجمة اقوال العامة كلما دعت الى ذلك مشاكلة الواقع (13). وقد وفق السبامى الى نوع من الترجمة لا نؤم انه يرضى الدكتور محمد مندور ، ولكنه ابرز ما يتميز به الحوار فى المرحلة الثالثة .

يعمد السبامى الى العبارة العامية فيبقى فيها على النوع الاول من الكلمات المشتركة ، اما بقية الكلمات المشتركة فانه يستبدل صيغها العامية بالصيغ الفصيحة ، واما الكلمات التي تنفرد بها العامية من دون الفصحى فانه يستبدلها بنظائرها الفصيحة . وفيما يلي بعض العبارات العامية ، والترجمة التي يستعملها السبامى ، والعبارات التي يؤثرها انصار الفصحى :

يمكننا اذن ان نقسم الكلمات الفصيحة الى ثلاث طبقات : طبقة عليا تألف من كلمات تنفرد بها الفصحى من دون العامية (مثل « حذاء ») ، وطبقة وسطى تألف من كلمات مشتركة لصيغة الصيغة ليس لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « صائم ») ، وطبقة دنيا تألف من كلمات مشتركة لصيغة الصيغة لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « دوخ ») .

وكلمات الطبقة الدنيا تنسم بطابع عامي مصدره وجود مترادفات لها فى الطبقة العليا . لذلك يزور انصار الفصحى عن كلمات الطبقة الدنيا ؛ اما يوسف السبامى فيتعمد اختيار تلك الكلمات ليلبغ ما يريد من التوفيق بين العامية والفصحى . وفيما يلي بعض ما يستعمله السبامى من كلمات الطبقة الدنيا ، وما يؤثره انصار الفصحى من كلمات .

كلمات الطبقة العليا

كلمات الطبقة الدنيا

انهضى

قومى

العبارات الفصيحة	الترجمة	العبارات العامية
معافى تماما	سليم اربعة وعشرين قيراطا	سليم اربعة وعشرين قيراط
معافى تماما	سليم مائة فى المائة	سليم ميه فى الميه
معافى تماما	كالجنن الازرق	زي الجنن الازرق
ضاع عليك الكثير	فانك نصف ممرك	فانك نص ممرك
ارهقني من امري مسرا	اراني نجوم الظهر	وراني نجوم الظهر
تنصب له اشراكها	تشتغل عليه	تشتغل عليه
امطاني اياها فى الحال	امطاهالي وانا واقف	ادهانسي وانا واقف
رمضان لا يعنيني فى شيء	لا يهنني رمضان	ميهمنيش رمضان
رجل طيب القلب	رجل امير	راجل امير
تأبين ما يشين	تعملين العملة	تعملني العملة
احتشمى	لمسي جسمك	لمسي جسمك
لا بد ان الثوب لا زال عند الكواء	لا بد ان الثوب لم يات من عند المكوجي	لازم الفستان ما جاش عند المكوجي

(13) « فى الميزان الجديد » للدكتور محمد مندور (القاهرة : مطبعة نهضة مصر) ، ص 55 .

انا احب مصام
أريد غيار لنادية
وضع الدكتور لها مرهم
اتظنين الرئيس جمال عبد الناصر فاضي ؟

يرى تشارلز فرغيسون ان « التخصص من أهم
مميزات الأزواج اللغوي » . (14) وهو يقصد بذلك
ان العامية قل أن تؤدي من وظائف الفصحى شيئا ،
وان الفصحى قل أن تؤدي من وظائف العامية شيئا .
ذلك حق ، ولكننا نرى مما سبق ان العامية والفصحى
تتنازعا في بداية الامر ، وان ما يكون بينهما من تنازع
على وظيفة بعينها لا يتمخض عن نصر حاسم الا بعد
مرور زمن قد يطول . فظهور وظيفة جديدة في الادب
العربي ، هي القصة الحديثة ، قد اثار بين العامية
والفصحى خصومة شديدة وصراعا عنيفا . وليس
أسلوب المرحلة الثالثة عند السبامي الا اثرا من آثار
هذه الخصومة وصدى من اصداه ذلك الصراع .

ونحن نصر على ان نقطة الانطلاق ليست المبارات
الفصيحة ، اي ان السبامي لا يعمد الى العبارات
الفصيحة فيختار منها اقربها الى العامية . ولو كان
ذلك مذهبه لما عثرنا في كتبه على تعابير مثل « رجل
امير » و « تشتغل عليه » لانها لا تؤدي في اللغة الفصحى
ما يقصد اليه من معنى .

تجريد بعض الكلمات من علامات الاعراب

اكثر الكلمات التي يجردها السبامي من علامات
الاعراب هي أسماء العلم ، وهو يجردها مادة من علامة
النصب ومن التنوين . غير ان السبامي احيانا يجرد
من علامات الاعراب ومن التنوين كلمات غير أسماء
العامية . وستجد في الجمل التالية امثلة على ما نقول:
العلم ، ولا سيما اذا كانت تلك الكلمات مقتبسة من

ساعود الى البيت لارى فاضل

لا بد ان اذهب لارى مصام

Charles Fergusson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), p. 328. (14)

